الذات في السرد النسوي رواية المتمردة لمليكة مقدم أنموذجا

Self in the feminist narration
The "Rebellious" novel by Malika Mokddem is a model

حنينة طبيش *

تاريخ الإرسال: 2020/07/21	تاريخ القبول: 2021/04/28	تاريخ النشر: 2021/09/15

الملخص:

تروم الدراسة البحث في تجليات الذات في الرواية النسوية المكتوبة باللغة الفرنسية، وتتخذ من رواية المتمردة للكاتبة الجزائرية "مليكة مقدم" نموذجا للتطبيق، عبر تتبع تمظهرات الذات التي تتجلى عبر الكتابة باستخدام ضمائر المتكلم والقص التذكري وخطاب الكنتية، كل هذه العناصر تتضافر فيما بينها لتضرب الميثاق التخييلي الذي يضمنه المؤشر التجنيسي المثبت على صفحة الغلاف الخارجي ألا وهو "رواية" هذا الجنس الأدبي المنفتح الذي ما فتئ يستثمر القاصي والداني ليشكل فرادته الأجناسية التي جعلته محج الكتاب الذين اختاروا مرونته التي منحتهم حرية أكبر لتخييل الواقع ومكاشفة الذات.

الكلمات المفتاحية: الذات، المتمردة، الكتابة، مليكة مقدم، السرد النسوي.

Abstract:

The present study reviews the self-manifestations of the French-written feminist novel taking the novel of “the rebel” of the Algerian writer Malika as an application model. The study pursues the self-manifestations represented through writing and the use of the first-person pronouns and the memorial story, all of which combine to strike the imaginary charter ensured by the naturalization index on the outer cover page of the "novel", which

المؤلف المرسل: حنينة طبيش hanina.tabbiche@univ-khenchela.dz

*جامعة خنشلة hanina.tabbiche@univ-khenchela.dz

grants the writer greater freedom to conjure reality and self-reveal.

Key words: Self , rebel, writing, Malika Mokaddem, feminist narration

*** *** ***

. مقدمة:

"هل يمكن تحديد السيرة الذاتية؟" هكذا ابتدأ فيليب لوجون فصله الذي عقده للحديث عن ميثاق السيرة الذاتية وهو سؤال يوحي بصعوبة الأمر وتعقيده، ما يحيل إلى أن السيرة الذاتية ليست جنسا خالصا فهي تلتحم بالمذكرات واليوميات والاعترافات وتقيم صلات وطيدة بأجناس أدبية كثيرة منها: جنسا الشعر والرواية هذه الأخيرة التي اتخذها كثير من الكتاب مطية للسرد الذاتي خاصة إذا تعلق الأمر بالكتابة النسوية* الذاتية**، وهذا ما يشرّع باب التساؤل على مصراعيه حول سر هذا الاختيار. هل هو اختيار فني جمالي؟ أم أنه ضرورة مجتمعية حتمت على المرأة التخفي وراء الطبيعة التخييلية للشكل الروائي درءًا لشبهة التطابق مع الواقع؟ إن هذه الدراسة تجتهد للإجابة عن هذه الإشكالية عبر مقاربة نص "المتمردة" للكاتبة الجزائرية مليكة مقدم، متقصية طريقة تجلّي الذات وتمظهرها في المتن الروائي عبر الكتابة اللعب بالضمائر والقص التذكري للوصول إلى سر هذا الاختيار، وهذا ما سنجليه فيما يأتي:

1. نحو رواية سيرية:

يذهب كثير من الدارسين إلى الجزم "بأن المشروع السير ذاتي مشروع مستحيل الاكتمال"[1] ذلك أن الكتابة عن الذات ليست إلا نوعا من التحريف المضاعف عبر الذاكرة مرة وعبر الكتابة مرة أخرى[2] وعليه فإنّ المرجع الواقعي يهت لتنفتح عوالم التخييل التي تعيد تشكيل ذلك المرجع بوعي جديد وعميق، ولعل ما يجعل المبدعين يختارون التحرر من الميثاق السير ذاتي هو صرامته، فتراهم ينحون منحى التخييل الذاتي الذي يمنحهم حرية أكبر وفسحة أرحب؛ لذا كانت "الرواية بحكم طبيعتها الأجناسية الفاعلة والمشتغلة في فضاء التخييل تساعد في تحرر الكاتب من ضغط الإدلاء بمعلومات أو اعترافات داخل فضاء تخييلي للكشف عنها وتسويقها سرديا"[3] إن هذه الحرية التي يضمنها جنس الرواية في مقابل صرامة الميثاق السير ذاتي جعلت كثيرا من المبدعين يحاولون الاستفادة منها في

تخييل الذات خاصة إذا ما وضعنا في الحسبان تقارب البناء الفني للسيرة الذاتية والرواية وتداخله.

إن هذا القرب الفني إضافة إلى رغبة المبدعين في التحرر من صرامة النظرية هيّأ لظهور جنس هجين هو الرواية السير ذاتية، ويقصد بها "كل النصوص التخييلية التي يمكن أن تكون للقارئ فيها دوافع ليعتقد، انطلاقا من التشابهات التي يعتقد أنه اكتشفها، أن هناك تطابقا بين المؤلف و الشخصية، في حين أن المؤلف اختار أن ينكر هذا التطابق، أو على الأقل اختار أن لا يؤكده"[4] إن حرية الاختيار هذه هي التي يشيّد عليها المبدعون عوالمهم السردية التي تتكئ على المرجع ولكنها لا تقوله بحرفيته وإنما تعيد إنتاجه عبر تخييله.

2. الذات/المتمردة والكتابة:

إن العلاقة التي تربط الذات بالكتابة تتسم بحميمية المكاشفة كيف لا و"كتابة الذات هي طاقة النور التي تنطلق منها الروح إلى فضاء الهوية الرحب، بل هي المرآة التي تتيح للروح إمكانية فريدة من نوعها؛ أن لا تظلّ سجينة جوانيتها؛ ومن ثمّ تبدو رحلة هذه الذات رحلة إلى الداخل، أو هي عودة إلى الذات في اتجاه عكسي... أي نحو الماضي الذي عاشته، وما الكتابة هنا إلا لتأكيد حق الذات في الاختلاف عبر التمركز حول "الأنا" أو الحملقة في مرآة الذات"[5]، وهذا ما وعته "مليكة مقدم" في رحلتها الذاتوية إذ أنها أدركت أهمية الكتابة للخروج من شرنقة الآخر/الرجل إلى عمق الأنا/الذات والتمركز حولها عبر التمرد الكتابي واسترداد اللسان المنهوب منذ عقود طويلة فـ"أن تكتب المرأة معناه خروجها من دائرة الصمت التي حصرت فيها، وأن تخرج المرأة عن صمتها بواسطة فعل الكتابة مفاده أن تقول، أن تفعل، باختصار أن تنافس وتشارك الرجل في سلطة بناها وفق مقاييسه وهذا ما لا يقبله الرجل»[6] عموما والرجل الشرقي على وجه الخصوص، كما هو حال **"مليكة"** التي أرادت الحملقة والتغوير في مرآة ذاتها عبر الكتابة فتمرّدت وكتبت ففعلت وأهدت كتابها للرجل الأول الذي تمردت على تقاليده، إنه "والدها" الذي يمثل سلطة المجتمع الذكوري الفحولي تقول: "إلى أبي أهدي هذا الكتاب الذي لن يقرأه"[7].

ويرى محمد معتصم أن"الكتابة الموجهة إلى الرجل.. تقوم بنياتها على نمط خاص من الصراع. فالرجل يمثل السلطة القاهرة والعائق الحقيقي أمام المرأة. ولكي تنطلق المرأة بكل

حرية عليها أن تجتاز عقبة الرجل"[8] وهذا بالضبط ما يدلّ عليه هذا الإهداء الساخر المتحدّي والمتجاوز للرجل الأول (الوالد) ولجنس الرجال بصفة عامة، إذ يشي بتفوق الأنا/الذات/الأنثى على الآخر/الرجل؛ ذلك أنه لا فرق بين الرجال بين ضفتي المتوسط الجنوبية والشمالية فشخصية الرجل لا تتغير بتغير المكان، فصديقها الفرنسي (جان لويس) لا يختلف عن والدها في شيء، إذ بمجرد أن تمسكت بحقها في الكتابة/ الوجود/ الاختلاف/ الحملقة في الذات تركها. تقول على لسانه: "بمجرد أن بدأت الكتابة انتابني إحساس أنك صعدت إلى قاطرة تاركة إياي على الرصيف"[9]. وهذا ما جعله يتخلى عنها لما تمسكت بفعل الكتابة، إذا فموضوعة الكتابة النسوية تزعج الرجال كلهم فهم "لا يتحملون امرأة تمارس الكتابة"[10] عموما، حتى في جانبها التخييلي البحت فما بالك بكتابة تحملق في مرآة الذات لتقول واقعا مخيّلا، مما يجعل درجة التحدي تعلو ونبرة الصوت تزداد حدة، وهذا ما يتطلب جرأة حقيقية في المكاشفة والتعبير.

إنّ هذه الجرأة يشي بها عنوان الرواية "المتمردة" الذي يعد هوية النص أو هو إرهاص مبدئي لا يكتمل معناه إلا لاحقا في النص[11] لذا فإن أي قراءة أولية تأويلية هي مبدئية وليست نهائية؛ لأن الثانية لا تكون إلا في ضوء النص الذي يقع خبرا للعنوان المبتدأ. والتمرد في اللغة من مرد والمرود هو "أن يبلغ الغاية التي تَخْرُجُ من جملة ما عليه ذلك الصنف"[12] والصنف –هنا- ما هو إلا جنس النساء -الذي تحيل عليه تاء التأنيث- المحكوم بتقاليد مجتمعية صارمة تمردت البطلة عليها في الواقع الحقيقي عندما سافرت، ثم تمردت ثانية عندما قرّرت تخييل هذا الواقع كتابة بما يحيل عليه فعل الكتابة من القدرة "على التنافذ من مرجع حاضر إلى آخر غائب"[13]، فالكتابة تحمل ديمومة زمنية تجعلها تنعتق وتتحرر من الضغط النفسي (الصمت). تقول: "تدافعت كلمات الصمت، كلمات كل أنواع الصمت. لطمتني بقسوة ناجعة"[14] إن الصمت المؤلم المتراكم يتحول إلى سيل من الكتابة اللامتناهية في محاولة للإحاطة بكل ذلك الصمت المؤلم.

إن الكتابة تصبح بالنسبة للذات نوعا من العلاج في مواجهة ألم وفجائعية الواقع؛ إنها نوع من المواجهة الشرسة لشروخات الذات؛ لأن الهرب/الصمت لم يعد مجديا. تقول: "في الماضي كان النهار يكفيني لأن أكتب، والآن استولت حمى الكتابة على سريري، وعلى لياليّ أيضا. كلمات التمرد والارتباك تطاردني حتى شراشفي"[15] إن هذا القهر الاجتماعي

المعزز بالصمت هو الذي جعل البطلة تكتب "المتمردة"، التي يشير عنوانها إلى الروائية "نظرا لهيمنة وجود الذات الكاتبة"[16] عبر ذكر كثير من التفاصيل التي تأتي في شكل اعترافات جريئة متمردة شعارها الإصرار. تقول: "كان كتابي الثالث الممنوعة قد حصل للتو على استقبال مشجع في فرنسا، في الوقت نفسه كان جان لويس يجتاز مرحلة حرجة على الصعيد المهني... ولأنني قررت أن أحفر في الأجزاء المخفية من ماضيَّ... كنت في حاجة إلى الكتابة"[17] هذه الأخيرة التي أضحت خيارا وحيدا للحياة والانعتاق. تقول: "أكتب. أسوِّد صفحات. كتابة غاضبة. كنت سأموت لو لم ألتجئ إلى الكتابة."[18] إذًا فالكتابة خيار بديل عن الصمت الذي كانت تعيشه في طفولتها؛ إنها تنفيس عن القلق النفسي والقهر الاجتماعي؛ وعليه فإن الكتابة عن الذات تصبح ضرورة تعيد التوازن المفقود، إنها علاج لذلك الهروب الكثير من الواقع عبر القراءة والصمت.

ويبدو أن الصمت الطويل هو الذي عزّز السيل الكتابي عن الذات؛ إنه صمت يعود لأيام الطفولة، الصمت الذي ولّد الحقد تجاه الرجل الأول الذي صمتت أمامه في طفولتها. تقول: "قبل العطلة المدرسية حضنت حقدي في سريري ليال عدة متوالية. كنت الأولى في القسم الدراسي، وكنت فخورة جدا بأن أري نقاطي لأبي. هذه الأرقام يعرف أبي قراءتها. كانت له [هيئة] جمل متساهل، أبعد دفتري عن مجال رؤيته وقال بشفقة: لا داع لهذا التعب، فأنت لست ولدا يا ابنتي! أحسست كل جسدي يتصلب ويتهيج. كان نظري أسود، اجترت في رأسي هذه الفكرة: سوف ترى، سوف ترى، ولكني ظللت صامتة من الشقاء"[19] إن هذا الصمت الطويل الذي فرضته التقاليد الذكورية يعقبه فعل البوح والمكاشفة عبر الكتابة التي تأتي في شكل هدية لهذا الأب/الرجل، واستجابة بعدية لذلك القرار الأولي الذي جاء مكررا "سوف ترى، سوف ترى"؛ هذا التكرار الذي يفسر الضغط النفسي الرهيب فنحن "نكرر أحيانا لنحيط بحالة لا يستنفذها شكل واحد من التعبير. أو نكرر لكي نحاول أن نمسك بما يفلت، أو بما يتعذر الإمساك به"[20]، ويبدو أن كل هذا اجتمع عند "مليكة" التي لم تنفك تكتب بضمير الأنا المتكلم وتتوغل في الذات المتشظية بين الهنا (فرنسا) أين التقت "جان لويس" الرجل الذي هجرها بسبب تشبثها بالكتابة والهناك (الجزائر) ماضيها الذي تخلصت منه ساعة وصولها الهنا (فرنسا).

إن الوصول إلى الهنا/فرنسا تمثل المرحلة الأولى لانعتاق الذات وتمردها على الهناك/ الجزائر، إذ تقول: "قذفتُ إلى الجحيم بكل محظورات الوالدين. محظورات القبيلة كلها. الأرق السماوي، الذي كانت تمثله الصحراء بالنسبة لي. كل أشكال الاستهجان والتجريمات الاجتماعية"[21] أما المرحلة الثانية من التمرد فتتحقق عندما تختار الذات الكتابة من الهنا (فرنسا) عن الهناك (الجزائر) بكل تناقضاته لأن "الكتابة ودوران الكلمات تحبط التباريح الشديدة. الكتابة وتسويد بياض جسد الورق هو ربح صفحة حياة"[22] تناضل البطلة "مليكة" بشدة عنها، ومهما كان الثمن باهضا فلا شيء أثمن من الحياة والانتصار للذات عبر الكتابة عنها[23].

وحري بالذكر في هذا المقام أن الذاتوية -بوصفها تمركزا حول الذات والانطواء التام عليها وتحقيق اللذة في تلك التخييلات[24]- كانت تسيطر على مليكة منذ مرحلة الطفولة. تقول في مقاطع كثيرة منها هذا المقطع: "أنهمك بشراهة في قصص ومحكيات جدتي، وفي الكتب. أتصارع من اختراع فضاءاتها ومساراتها. يظلّ التخييل واقعي الوحيد"[25] إن هذه القطيعة بين البطلة وواقعها جعل التخييل منفذا وحيدا لها، وما الكتابة إلا استجابة بعدية لذلك الشرخ الحاصل بين الذات والواقع.

3.الذات ولعبة الضمائر:

إذا انطلقنا من الميثاق التخييلي الذي تشيّد الرواية عوالمها عليه فإن الاشتغال الفني لضمير المتكلم يصبح أكثر منطقية، أما إذا انطلقنا من الميثاق السير ذاتي الصارم* الذي أقره "فيليب لوجون" المتعلق بضرورة التطابق الواقعي بين المؤلف والراوي والشخصية البطلة فإن اشتغال ضمير المتكلم يصبح اشتغالا جنسويا هوياتيا فالهوية كما يقر "فيليب لوجون" "لا يمكن تحديدها اعتمادا على ضمير الأنا الموجود في النص فهذا الضمير إنما هو إحالة إلى الأنا داخل الخطاب لا في المرجع الواقعي. وما من سبيل إلى ربط علاقة تطابق بين الراوي والشخصية الرئيسية والمؤلف، إلا استنادا إلى اسم العلم الذي يحيل إلى شخصية المؤلف في غلاف الكتاب"[26]، وفي ظل ورود اسم البطلة عدة مرات ومنها هذا المقطع على لسان والدها الذي يقول موجها كلامه للمدرِّسة: "أعدك أن **مليكة** ستواصل دراستها. حتى لو اقتضى الأمر أن تذهب إلى روسيا"[27] فإن قوة الإحالة المرجعية لضمير المتكلم تتضاعف في نص المتمردة؛ إذ يلتبس بالذات الساردة أولا وبالذات الكاتبة في

كثير من التفاصيل الواقعية، ومنها وظيفة مليكة مقدم التي كانت تمتهن الطب فقد جاء في هذا المقطع مقترنا باسمها: "هل كل شيء على ما يرام يا دكتورة مليكة؟"[28].

إنّ المرجع الواقعي يهيمن على كثير من مفاصل السرد ومنها هذا المقطع، تقول: "أربع سنوات من عملٍ مجهدٍ من أجل كتابي الأول الرجال الذين يمشون أربع سنوات في تسمّع الطفولة والمراهقة"[29] وتقول في مقطع آخر: "كان كتابي الثالث الممنوعة قد حصل للتو على استقبال مشجع في فرنسا"[30]، إن هذه التفاصيل المحيلة على المرجع الواقعي تعزز اشتغال ضمير المتكلم على المستوى الجنسوي والهوياتي إلى جانب الاشتغال الفني فالمؤشر التجنيسي "رواية" لا يمكننا إغفاله بل يفضي بنا إلى القول بما قال به "محمد برادة" فيما يتعلق بالهدف من تخييل السيرة الذاتية الذي لا يتقصّد به الكاتب حماية نفسه بقدر ما يروم التحلل الجزئي من هويته حتى لا تظل جاثمة عليه بثبوتيتها وأحاديتها[31]، وهذا بالضبط ما اشتغلت عليه مليكة مقدم عبر تخييل سيرتها الذاتية.

إن "مليكة" تسعى إلى "إثبات الهوية النسوية، وتحقيق انعتاق الذات عند الأنثى التي تعيش تحت ضغط الموروث التقليدي، الذي حدد تاريخيا أفق العقلية الذكورية التي تقمع إمكانية الحركة والفعل عند المرأة"[32] لذا فهي تقرر أن تتحرك وتفعل عبر الحفر والكتابة بضمير المتكلم؛ لأنه الأقدر على مكاشفة الذات والاقتراب ولهذا نجدها تصرّح: "ولأني قررت أن أحفر في الأجزاء المخفية من ماضيَّ... كنت في حاجة إلى الكتابة"[33]، إن بروز ضمير المتكلم في هذا المقطع السردي ما هو إلا مواجهة الأنا لذاتها عبر الاقتراب من الماضي المخفي والمناطق المعتمة فيه عبر الكتابة بضمير الأنا دون غيره من الضمائر، إذ تحاول الذات إضاءة هذه العتمة بالتمرد على هاجس الصمت عبر فعل الكتابة بضمير المتكلم "أنا" وهذا الفعل هو من صميم أدب السيرة الذاتية، ذلك أن هذا النوع من الأدب "هو اقتحام للذات لكشف حركة النفس الباطنية ومستوى وعيها، فوراء كل أدب ذاتي اعتقاد بأن الذات مستقلة لكنها شفافة أمام نظر نفسها"[34]، إن هذا الوعي بالذات يتحقق عبر الكتابة التي تصبح طريقة للحياة عند الكاتبة.

ويستمر الاشتغال الجنسوي لضمير المتكلم في كثير من المقاطع المحيلة على واقع الكاتبة مما يجعله صوتا رنانا، مهيمنا وغاضبا، صوتا متمردا ومترددا بين الماضي والحاضر والمستقبل، تحاول البطلة من خلاله الالتحام بذاتها أولا ومواجهة الآخر ثانيا عبر تعريته

وتقويض هيمنته، ورغم قوة الإحالة المرجعية التي يشي بها ضمير المتكلم فهي لم تنف عنه اشتغاله الفني المتجسد عبر تخييل هذه الأنا المقموعة في الماضي (لحظة الصمت) والمتمردة في الحاضر (لحظة الكتابة)، بحيث تصبح الأنا آخرا كذلك تعيد الذات اكتشافه والتعرف عليه من جديد عبر الذاكرة أولا والكتابة ثانيا.

وما تجدر إلى الإشارة إليه أن ضمير المتكلم يمتزج في بعض المقاطع بضمير الغائب، ولكنه يبقى مهيمنا على دفة السرد وموجها لها، وهذا التمازج الضمائري راجع إلى كون الذات الساردة تجد نفسها "أحيانا في وضع مريح نفسيا وعاطفيا وجسديا ، يسمح لها باستظهار أعلى طاقة ذاتوية ممكنة للتعبير عن سحر اللحظة السير ذاتية في سياق الروائي، في حين تنحسر أحيانا لتلتئم على كينونتها، وبشتد تمركزها على ذاتوية ضيقة لا تستوعب حجم الوجد والألم والفقدان، فتشرع إلى الاستعانة بضمير مجاور يفكّ أسر الضيق ويفتح المجال السردي على حيوية أكبر تتيح له فرصة التواصل والاستمرار وإمكانية الحكي"[35] ومنه فإن ضمير الغائب يحرر الذات من تلك الحالة النفسية الثابتة التي يولدها التمركز حول الأنا كما في هذا المقطع: "المحكيات المترحّلة، رحيلها، وصولها، بحثها عن الماء، الاشتغال على الصوف، وقوافل الملح والأقمشة القطنية والشاي... لم تكن جدتي تنتهي من غربلة ذاكرتها المترحّلة لي. ولكنها عرفت كل هذا قبل أن تجد نفسها مسمّرة إلى حياة الاستقرار. أما أنا فقد فتحت عيني وأنا مربوطة، مثل عنزة إلى دعائم صهريج صدئة"[36] إن هذا التناوب الضميري لا يفضي في الأخير إلا إلى الأنا/المركز؛ وهكذا تبسط الذات/السارد العليم هيمنتها على النص السردي كله.

4.الذات والقص التذكري:

يحضر القص التذكري بصورة ملفتة للانتباه في شكل مفارقات مؤلمة يؤطرها التمرد على الاستلاب وهو "الوصف الموضوعي لحال الاستغلال –حال الحرمان بفعل شخص آخر ولمصلحته- وبين تبلور الوعي بشأن هذه الحال"[37] إذًا فالقص التذكري وإن كان يحيل على المرجع الواقعي فهو لا يستدعيه بحرفيته، وإنما يعيد بلورته في شكل وعي جديد ينتج صورة جديدة تختلف عن الصورة الحقيقية، وهذا راجع إلى كون "كاتب السيرة الذاتية مثله مثل دارس التراث ينطلق كل منهما من تصور حياة معينة، ويحاول أن يعطيها بعدا صوريا، وينْصبُّ عمله بعد ذلك على محاولة إعادة رسم تلك الصورة وتقديمها

باعتبارها مصدرا للاعتزاز، أو منطلقا لفهم الذات في تحولاتها أو أساسا لتشكيل صورة مستقبلية جديدة"[38]، وهذا بالضبط ما تشتغل عليه "مليكة مقدم" في كتاباتها عموما وفي المتمردة على وجه الخصوص، إذ تشتغل على الذاكرة لإعادة إنتاج المواقف السابقة ولكن بوعي جديد.

تقوم الذات/البطلة باستدعاء الماضي المؤلم بوعي المنتصر/المتمرد، تقول متذكرة: "الانقلاب التام للنوم يدشّن تحوّل الرّفض إلى مقاومة. يرسّخ من تصميمي على ألا أدع نفسي أتحوّل إلى أمة لأخوتي. فهم يقضون نهاراتهم في اللعب وفي السباحة. وفي المساء يستطيعون الذهاب إلى السينما. وعلى كل حال فهم ليسوا فقط أحرارا، ولكنهم أيضا محل دلال وغنج وملاطفة. أما أنا، فلا حق لي في أي شيء من هذا وما عليّ إلا أن أخدم وأن أذعن، أن ألوذ بالصمت. وإخراس الشقاء الذي تسببه لي كثير من التميزات في الحنان. إن كبرياء الأطفال، هؤلاء الملوك الصغار بالقوة، إذا ما أضفنا إليها تشدد الآباء يثيران سخطي... في هذه الفترة، فيما أعتقد بدأت أعي النظرات العدائية التي تلقيها أمي عليّ، وباستمرارية لعناتها وغياب الكلمات الودودة والمطمئنة"[39]، إن الذاكرة هنا تشتغل لتستدعي وضعا عاشته الذات/المتمردة الصغيرة، وضعٌ تراوح بين الفعل ورد الفعل، بين الحرمان والتمرد، ويأتي الوعي بهذه الثنائية المتقاطبة -في البدء- بسيطا؛ وهذا لأن الوعي هنا متزامن مع الحدث المتذكَّر في حين يتعمق الوعي بالحدث في مرحلة لاحقة هي مرحلة الكتابة أو التمرد الأكبر.

إن الذات/الساردة في توظيفها/استدعائها لمقاطع السرد التذكري تتجاوز مرحلة الملاحظة العرضية البسيطة إلى مرحلة المساءلة العميقة. فتقول: "ألم توجد أية استثناءات إزاء كل هذا؟ لقد فركت الذكريات عبثا فلم أسمع إلا صلوات نواحها وأوامرها التي تدكّ أيامي"[40]، إن عملية فرك الذاكرة لم ينتج سوى مزيد من صور الاستلاب والحرمان الذي يولد مع ولادة الأنثى: "**هناك**، كثيرا ما سمعت نساء حوامل وهن يتأوّهن ويترجين الله أن تحمل الأجنّة التي يحملنها أعضاء جنسية ذكورية. وهن يدلكن بطونهنّ، وعيونهنّ محلّقة بسبب تضرعهنّ. أقول لنفسي، **الآن**، بأنه كان يوجد ما يوصل هذا القلق للأجنة،بغض النظر عن جنسها،على افتراض أنها مازالت لا تمتلك الوعي، في هذا المقام. في هذه الشروط، ما الذي ستحسّ به الرضيعات وهنّ يتقابلن مع وجوه الوأد والدّفن التي تستقبل صرختهنّ

الأولى؟"[41] إن الهناك (البعيد/الذاكرة/الجزائر) يحضر دائما مقترنا بصور الخيبة والحرمان ويحضر الهنا (القريب/الوعي/فرنسا) ضمنيا عبر المساءلة ليقوض هذه الذاكرة عبر نقدها وتعرية المضمر والمسكوت عنه في محاولة من الذات الانتصار للأنا.

إن هذا الواقع الذي سيتحول فيما بعد إلى ذاكرة مدوّنة هو الذي سيدفع البطلة إلى مغادرة الجزائر نهائيا، تقول: "لم أعد إلى الجزائر منذ سنة 1977. غياب دام ثلاث عشرة سنة. الأسباب لا يمكن حصرها: الأصولية وقطيعتي مع عائلتي. فعائلتي لم تقبل أبدا مغادرتي الجزائر. ولم تقبل أن تراني أعيش مع رجل فرنسي"[42]، إن الجزائر تعود إلى البطلة عبر الذاكرة بوصفها (هناك) و"في هذا المستوى الثقافي لا تعبر المفاهيم المكانية –فقط- عن علاقات فيزيائية صورية مجردة من القيم والأحكام بل تتحول إلى وسيلة من الوسائل الرئيسية لوصف الواقع... فإذا نظرنا إلى مفاهيم مثل أعلى أسفل أو يسار يمين أو قريب بعيد... نجد أنها (أي المفاهيم) تستخدم لبنات في بناء نماذج ثقافية لا تنطوي على محتوى مكاني فتكتسب هذه المفاهيم معاني جديدة"[43] كما هي الحال مع ثنائية الهنا والهناك، الهنا بما يحيل إليه ثقافيا من قرب واتصال ومعرفة للذات، والهناك الذي يحيل على البعد والانفصال والقطيعة إضافة إلى تشظي الذات.

إن هذا الانفصال يجعل البطلة تبتكر طريقة أخرى للعودة التي تتم عبر الكلمات وعبر الذاكرة تقول: "في نهاية هذه العودة إلى الجزائر عبر الكلمات"[44] وهذه العودة الذاكراتية لا يمكننا بحال من الأحوال أن نطمئن لصدقها التام ذلك أن "الذاكرة تحرّف الماضي والكتابة تحرف ما حرفته الذاكرة"[45] وهكذا نجد أنفسنا أمام كتابة تخييلية مذوتة.

5. خاتمة:

ومن هم النتائج المتوصل إليها:

- تعد الرواية الجنس الأدبي الأمثل لتخييل الواقع المرجعي ومكاشفة الذات بحرية بعيدا عن صرامة جنس السيرة الذاتية.
- إن الذات كانت حاضرة بقوة في نص المتمردة عبر الكتابة التي تعد رحلة ذاتوية مغوّرة إلى الداخل، إنها إعادة اكتشاف للذات المتشظية بوعي جديد يعيد لها توازنها الذي أفقدتها إياه تقاليد المجتمع البطريركي أو القبيلة –كما تسميها

الكاتبة-، لذ تنتصب الكتابة لتدافع عن حق الذات/المرأة في الاختلاف هذا الحق المفقود في الواقع تجسد في الكتابة بوصفها ملجأ قادر على إحباط التباريح الشديدة.

- كان ضمير المتكلم المعضود باسم البطلة/الكاتبة "مليكة" مؤشرا حاسما على سيرنة الرواية، وقد لاحظنا هيمنته المطلقة على دفة السرد حتى في المقاطع التي يوكل فيه السرد إلى ضمائر أخرى، وهذا يشير إلى تمركز الذات حول الأنا ودورانها حولها.
- اشتغلت الكاتبة على تقنية القص التذكري ولكن اشتغالها لم يكن اشتغالا نمطيا عبر استعادة الواقع بحرفيته بل هو اشتغال فني يستثمر الواقع ثم يسائله ليعيد إنتاجه بوعي جديد يتزامن مع لحظة الكتابة، وهو وعي عميق يختلف عن وعي الكاتبة بالحدث لحظة وقوعه.

6. الهوامش

* يقدم نزيه أبو نضال لكتابه تمرد الأنثى بمقدمة وسمها بعنوان: الشرط الاجتماعي وقصور الوعي في الرواية النسوية العربية حدّد فيها ما يمكن أن نسميه رواية نسوية حيث يقول: «إن الرواية لا تكون نسوية لمجرد أن كاتبتها امرأة بل لا بد للرواية أن تحمل صفة النسوية، أن تكون معنية بصورة جزئية أو كلية بطرح قضية المرأة بالمعني الجنسوي أو الجندري، وليس كتصنيف طبيعي لوجود شخصيات من الرجال أو النساء داخل النص الروائي» نزيه أبو نضال، تمرد الأنثى (في رواية المرأة العربية وببليوغرافيا الرواية النسوية العربية)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2004، ص11

** يجدر بنا في هذا المقام الإشارة إلى أن التمركز حول الذات"جعل النقاد ينعتون كتابة المرأة بأنها عبارة عن كتابة سير ذاتية وليست سوى اعترافات لا تتجاوز ما يخامر الذات في لحظات ضعفها، وفي سطوة غرائزها وشهواتها. ووصفت كتابتها بأنها رومانسية مغرقة في عتمة الذات المنعزلة عن العالم والناس والمحيط. وأن كتاباتها لا ترقى إلى كتابات الرجل الذي خبر الحياة ووقف على مكامنها وخباياها» محمد معتصم، بناء الحكاية والشخصية في الخطاب الروائي النسائي العربي، دار الأمان، الرباط، دط، 2007، ص22

1 محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، الرابطة الدولية للناشرين المستقلين، ط1، 2010، ص262

2 ينظر: المرجع نفسه، ص262

3 محمد صابر عبيد، تمظهرات التشكل السير ذاتي (قراءة في تجربة محمد القيسي السير ذاتية)، عالم الكتب الحديث، ط1، الأردن، 2010، ص140

4 فيليب لوجون، السيرة الذاتية (الميثاق والتاريخ الأدبي)، ترعمر حلي، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، 1994، ص37

5 سوسن ناجي، كتابة الذات قراءة في خطاب الهوية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، مصر، 2017،، ص 5

6 سعيدة بن بوزة، الهوية الاختلاف في الرواية النسوية في المغرب العربي، دار نينوى، ط1، سوريا، 2016، ص66

7 مليكة مقدم، المتمردة، المركز الثقافي العربي، دط، الدار البيضاء، 2004، صفحة الإهداء

8 محمد معتصم، المرأة والسرد، دار الثقافة، ط1، المغرب، 2004، ص24

9 مليكة مقدم، المتمردة، ص28.27

10 المصدر نفسه، ص19

11 ينظر: لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، مكتبة لبنان ناشرون، دار النهار للنشر، ط1، لبنان، 2002، ص15

12 ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، دط، مصر، دت، ج47، ص4172

13 محمد حافظ دياب، جاك دريدا ومغامرة الاختلاف (الكتابة كفضاء للاختلاف)، تاريخ الاطلاع 2019/10/25 http://maarefhekmiya.org/3298

14 مليكة مقدم، المتمردة، ص65

15 المصدرنفسه، ص29

16 أمل التميمي، السيرة الذاتية النسائية في الأدب العربي المعاصر،المركز الثقافي العربي، ط1، المغرب، 2005، ص190

17 مليكة مقدم، المتمردة، ص28

18 المصدرنفسه، ص29

19 المصدرنفسه، ص55

20 أدونيس، النص القرآني و آفاق الكتابة، دارالآداب، ط1، بيروت، 1993، ص133

21 مليكة مقدم، المتمردة، ص60

22 المصدرنفسه، ص55

23 ينظر: حنينة طبيش، التجربة الروائية عند واسيني الأعرج (قضايا النص والمناص)، دار المثقف، ط1، الجزائر، 2019، ص43

24 فرج عبد القادر طه وآخرون، معجم علم النفس والتحليل النفسي، دار النهضة العربية، ط1، لبنان، دت، ص203

25 مليكة مقدم، المتمردة، ص85

*«حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته، بصفة خاصة» فيليب لوجون، السيرة الذاتية (الميثاق والتاريخ الأدبي)، تر: عمر حلي، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، 1994، ص22

26 محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، الرابطة الدولية للناشرين المستقلين، ط1، 2010، ص447

27 مليكة مقدم، المتمردة، ص114

28 المصدرنفسه، ص79

29 المصدرنفسه، ص65

30 المصدر نفسه، ص28

31 محمد برادة، الذات في السرد الروائي، دار أزمنة، ط1، عمان، 2010، ص30

32 رشيدة بنمسعود، المرأة والكتابة، (سؤال الخصوصية/بلاغة الاختلاف)، أفريقيا الشرق، ط2، المغرب، 2002، ص141

33 مليكة مقدم، المتمردة، ص28

34 لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، ص13

35 محمد صابر عبيد، تمظهرات التشكل السيرذاتي، ص169

36 مليكة مقدم، المتمردة، ص85

37 لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، ص22

38 سعيد يقطين، الكلام والخبر (مقدمة للسرد العربي)، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، 1997، ص17

39 مليكة مقدم، المتمردة، ص112

40 المصدر نفسه، ص112-113

41 المصدر نفسه، ص92

42 المصدر نفسه، ص104

43 محمد بوعزة، تقنيات تحليل النص السردي (تقنيات ومفاهيم)، منشورات الاختلاف الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، الجزائر، لبنان، 2010، ص102

44 مليكة مقدم، المتمردة، ص65

45 محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، ص51